

الدكتور سيغ蒙德 والسيك فرويد*

هوغو ألبانديا

ترجمة: مصطفى شقيب - كاتب ومترجم من المغرب

مارس - أبريل - مايو 2018



chaqib@yahoo.fr

استهلال: من كان إذن سيغ蒙德 فرويد؟ رائد علم النفس بالنسبة للبعض، دجال متشبع بالنسبة للبعض الآخر... فمنذ حوالي ثلاثين سنة، يتواجه فريقان متعارضان كلياً في حرب لا هوادة فيها.

كلمات مفتاحية: فرويد، العلمية، التحليل النفسي، علم النفس

خلال وقت قصير جداً، لن يكثر أحد بالتحليل النفسي. " هكذا أعلن جاك لاكان في مؤتمر في بروكسيل بتاريخ 26 فبراير - شباط 1977، ولكن ليس من دون سخرية، الموت القريب لتخصصه العلمي. و يضيف: " التحليل النفسي هو احتيال ربّما، لكنه ليس احتيالا مثل كلّ الاحتمالات الأخرى، إنه احتيال جاء في محله بالنسبة لما هو الدال ". سيغ蒙德 فرويد، هل هو محتال؟ فبالنسبة لمؤديه، لا مجال لا لإنكار نقائص الأستاذ ولا التخلي عن أعماله، المؤسسة لتيار التحليل النفسي. وبالنسبة لمنقديه، فهم لا يرون في التحليل النفسي سوى خداع شبه علمي. فيفضل إشهار بارع، استطاعت الطائفة الفرويدية اقتحام الأوساط الفكرية، والطبية والثقافية للعالم بأسره.

لتسقط الأفتعة!

في العام 1885، وبينما كان التحليل النفسي في بداياته الأولى، بدأ فرويد التراسل مع عالم الأعصاب الألماني فيلهلم فليس. وقد أسرّ إليه بتأملاته، ونجاحاته وإخفاقاته. هذه الرسائل لم يتم العثور عليها إلا بعد مئة سنة من طرف جيفري ماسون، الذي كان يشتغل في الأرشيفات الفرويدية لفيينا. وتمثل اكتشافات هذا التابع السابق لفرويد طعنة قاتلة أولى للأسطورة الفرويدية. فبالنسبة لـ ماسون، قد يكون فرويد خان ثقة النساء اللواتي كنّ قد حكين له أنّهنّ تعرضن لإساءات في طفولتهنّ. فقد كان الطبيب النمساوي يعتبر بالفعل أنّ الذكريات التي ذكرتها مريضاته الهيستيرية لم تكن سوى "تخيل إغراء" من طرف الأب ولم تكن حقيقة. ووفقا للرواية الأكثر تشدداً، فقد تحدّث فرويد عن "تخيلات إغراء" بسبب عدم اتساق في قصص المريضات. ماسون، ومعه بعض المناضلات النسويات، أدانوا بالتالي وجهة نظر أبوية وتشكيكا جائرا في أحاديث النساء.

والضربة الموجهة لصورة فرويد لم تحدث بالتالي سوى القليل من الصدى. و لم تتدلع المعركة الأولى الكبرى للحروب الفرويدية إلا في العام 1993، في الولايات المتحدة الأمريكية. فريدريك كريبوز، محلل نفساني تائب، ينشر فرويد المجهول، ينذر عن خطر التحليل النفسي ويخدش

خلال وقت قصير جداً، لن يكثر أحد بالتحليل النفسي. " هكذا أعلن جاك لاكان في مؤتمر في بروكسيل بتاريخ 26 فبراير - شباط 1977،

سيغ蒙德 فرويد، هل هو محتال؟ فبالنسبة لمؤديه، لا مجال لا لإنكار نقائص الأستاذ ولا التخلي عن أعماله، المؤسسة لتيار التحليل النفسي. وبالنسبة لمنقديه، فهم لا يرون في التحليل النفسي سوى خداع شبه علمي.

فيفضل إشهار بارع، استطاعت الطائفة الفرويدية اقتحام الأوساط الفكرية، والطبية والثقافية للعالم بأسره

في العام 1885، وبينما كان التحليل النفسي في بداياته الأولى، بدأ فرويد التراسل مع

عالم الأعصاب الألماني فيلهلم فليس. وقد أسرّ إليه بمأملاته، ونجاحاته وإخفاقاته

هذه الرسائل لم يتم العثور عليها إلا بعد مئة سنة من طرفه جيفري ماسون، الذي كان يشتغل في الأرشيفات الفرويدية لفيبينا

بالنسبة لماسون، قد يكون فرويد خان ثقة النساء اللواتي كنّ قد كُنّ له أنهنّ تعرضن لإساءات في طفولتهنّ

لم تندلع المعركة الأولى الكبرى للحروب الفرويدية إلا في العام 1993

في الولايات المتحدة الأمريكية. فريدريك كريبوز، محلل نفسي تأسس، ينشر فرويد المجهول، يذّر عن خطر التحليل النفسي ويخشد مؤسسته

فرويد قد لا يكون سوى ناسج لقصص خيالية يفتقر إلى الحس التجريبي وضمير الأخلاقيات

العديد من الأطباء أحسوا بأنّ نراهم صارت موضع مساءلة، وعارضوا " مدمري فرويد Freud bashers " الأوائل، كما سموا أنفسهم

مؤسسته. فرويد قد لا يكون سوى ناسج لقصص خيالية يفتقر إلى الحس التجريبي وضمير الأخلاقيات. فيما قد تكون نزوته الجنسية، التي كان يراها السبب الوحيد لعصابته، هي التي قادت إلى ولادة علاج نفسي غير فعال. بل الأدهى من ذلك، أنّ إحياءاته الملحة جدًا هي التي قد تكون ولدت ذكريات زائفة لسفاح المحارم وسوء المعاملة. والعديد من الأطباء أحسوا بأنّ نراهم صارت موضع مساءلة، وعارضوا " مدمري فرويد Freud bashers " الأوائل، كما سموا أنفسهم. فبالنسبة لصمويل ليزي، أستاذ علم النفس ومن أنصار التحليل النفسي، يصبح "المتخصصون في فرويد بالتالي فاعلين مرتين، هدفهم منازعة الصورة العامة لفرويد". (1)

إعلان الحرب

في العام 1995، وقّع 48 مثقفًا أمريكيًا عريضة من أجل الاعتراض على معرض مخصّص لفرويد بمكتبة الكونغرس في واشنطن. فقد اعتبر خصوم فرويد المعرض متسامحًا جدًا مع أب التحليل النفسي. وتمّ تأجيل الحدث إلى العام 1998. ثارت ثائرة المحلّين النفسانيين، بل إنّ حتّى بعض المتقنين اليهود تبادلوا اتهامات معاداة السامية. وقامت إيلزابيث رودينسكو، مؤرخة التحليل النفسي، في 1996 بتناقل عريضة مضادّة دوليّة جمعت 180 توقيعًا وشجبت "شرطة الفكر التعديلي pensée révisionniste". لكنّها محاكمة معكوسة، بما أنّ موقعي العريضة الأولى كانوا يعتون أيضًا الفرويديين بـ "شرطة الفكر"... لقد حظي النزاع بتغطية إعلامية كبيرة (2)، ففي صفحات لوموند أو ليبراسيون انطلقت رودينسكو من منبرها للدفاع عن التحليل النفسي، الذي يحظى بالكثير من الدعم في فرنسا. وفيما وراء الأطلسي، قادت الانتقادات التجريبية لفرويد إلى إهمال التحليل النفسي - أو تقريبًا. ففي بداية سنوات 2000، كان 5000 أمريكي فقط من أصل 300 مليون تقريبًا يتابعون علاجًا تحليليًا نفسيًا. وقد تمّ تطهير الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية من أيّ نزعة تحليليّة نفسيّة في 1980، في إصداره الثالث.

وفي فرنسا، يستمرّ الجدل. ينشر الطبيب النفسي جاك بينيستو أكاذيب فرويدية في 2002، فتهمه رودينسكو بـ"معاداة السامية المقنّعة" وترى أنّ الطبّ النفسي الفرنسي صار طبًّا منكوبًا منذ أن تقيّد بمعايير الدليل التشخيصي. وجاء بعد سنتين تقرير المعهد الوطني للصحة والبحث الطبي حول فعالية العلاجات النفسية الذي كان قاسيًا جدًا إزاء التحليل النفسي. تقرير رفضه المحلّون النفسانيون وأكّدوا أنّ النفسية لا يمكن تقييمها بكذا طريقة متحيّزة وموجزة. لكن في بداية العام 2005، لا يعيد وزير الصحة فيليب دوست-بلازي الحديث عن التقرير نهائيًا. ويكون رد فعل معادي الفرويدية نشر مؤلّف الكتاب الأسود للتحليل النفسي، تحت إشراف كاثرين ميير. فيرد جاك-ألان ميلر، رائد مدرسة القضية الفرويدية، بكتاب مضاد أسود للتحليل النفسي. وتبعته رودينسكو بمؤلّف كلّ هذه الكراهية، لماذا؟ تشريح الكتاب الأسود للتحليل النفسي.

أكاذيب وشفاقات زائفة

الكتاب الأسود للتحليل النفسي، الذي ظهر في 1 سبتمبر - أيلول 2005، لاقى نجاحًا كبيرًا. فخلال أسبوعين فقط، بيعت 15 000 نسخة من المؤلّف، كتاب مكثّف جدًا (832 صفحة، 1.300 هامش بيبليوغرافي). وفي وسائل الإعلام، كان تلقي الكتاب على أقل تقدير متباينًا. فميلر يصف المؤلفين "بصياحين مشهورين يكرهون فرويد". ينبغي القول أنّه تم الاستخفاف بالطبيب النمساوي على مدى صفحات الكتاب من طرف أطباء نفسانيين، وأخصائيين

في العام 1995، وقّع 48 مثقفًا أمريكيًا عريضة من أجل الاعتراض على معرض مخصّص لفرويد بمكتبة الكونغرس في واشنطن.

نفسانيين، وفلاسفة، وعلماء ومؤرخين. فإن كانت بعض الفصول هي بالأحرى منابر إعلامية، إلا أنّ بعضها الآخر هو أكثر صرامة ورياسة. بدا فيها فرويد مثل كذاب متأصل. فقد كان مثلاً يقترح معالجة بالكوكايين من أجل معالجة إدمان المورفين. وبعد اختبارات على أحد أصدقائه، نشر مقالات يشيد فيها بنجاح علاجه... بينما بتزامن مع ذلك كان يحكي لخطيبته أنّ صديقه صار مدمناً أكثر فأكثر على المورفين والكوكايين. ويكتب هانس إيسرليس، عالم النفس ومؤرخ التحليل النفسي، في هذا الصدد: "المرات النادرة التي استطعنا فيها اختبار تأكيدات فرويد وجدنا أنه كان لا يقول الحقيقة".

وكون المرضى مجهولين يجعل من الصعب التأكد من كلّ الحالات التي ذكرها فرويد. وعلى الرغم من كلّ هذا، استطاع المؤرخون إيجاد البعض منهم، مثل "رجل الذؤبان". وفي لقاء تم نشره في 1970، ذكر أنّه شعر بالخيانة. فقد فسر بالفعل فرويد أحد أحلامه (الذي كان يرى فيه الذؤبان) مثل ذكرى مكبوتة لمضاجعة بين والديه! وعندما فسر للطبيب أنّه يجد التحليل "غير منطقي بشكل لا يصدق" وأنّه لا يظن ذلك، وعده فرويد بأنّه سوف يتذكّر لاحقاً. وبعد حوالي خمسين سنة، لم يتذكّر أبداً ولم يعالج الاكتئاب. ويشرح أنّه لم يعد يؤمن بالتحليل النفسي، الذي كان بالنسبة إليه مصدراً للمعاناة (3) وعلى الرغم من كلّ شيء، تبقى له ذكرى جميلة عن معالجه النفساني، فيقول: لقد كان «فرويد عبقرياً».

هل التحليل النفسي علم؟

في 2017، ينشر ليزي حروب فرويد من أجل الدفاع عن التحليل النفسي ومؤسّسه. ويفسّر فيه، بسبب "نزعة لتحويل وتعميم الحقائق"، تم بناء فرويد "كشخصية غامضة". إن كان الطبيب النمساوي قد فرض أفكاره من دون دلائل، بما في ذلك على مرضاه، من أجل تعميم افتراضاته، فأليس دجالاً؟ وفي أحد نصوصه الأخيرة، تحليل قابل للإنهاء، تحليل غير قابل للإنهاء، يعترف فرويد بنفسه أنّ مساعاه يكون فشلاً أحياناً. وكلّ ما يجنّده المحلّل من أجل العمل على إبراز ذكريات المريض لا يكفي. إنه مشكل العمل على اللاوعي: لا يمكن للمعالج اختبار تفاسيره اختصار الحقائق، بما أنّ المريض مُنع من التذكّر بسبب مقاوماته. بقي أن ننتظر رجوع الذكريات... هذا إن حدث يوماً ما. بالنسبة "لمنتقدي فرويد"، إنها إحدى مآزق التحليل النفسي. فهو عاجز عن تأكيد فرضياته، ولا يمكنه بالتالي أن يكون علماً من العلوم. وهو ما يؤكّده خصوصاً منذ 1935 الفيلسوف وعالم الابدستولوجيا كارل بوبر (4)

والمحلّلون النفسانيون واعون بكون فرعهم العلمي هو تقريبا غير ممكن التقييم. ففي رسالة مفتوحة إلى وزير الصحة مؤرّخة بتاريخ 12 يوليو-تموز 2017، أُنذرت عدّة رابطات للتحليل النفسي عن صعوبة قياس فعالية ممارستها: "فعل لاموضوعي عن اضطرابات اللاموضوعية لا يتم موضعه بسهولة (5) والبعض منها يقدر أنّه، بما أنّ فرويد كان غالباً يكرر المحاولات، فعمله يتميز بخصائص العلم. وآخرون يعترفون أنّ التحليل النفسي لن يكون أبداً علمياً. مثل ليزي، فهم يسلّمون بأنّ فرويد استخلص استنتاجات سريعة من ممارسته السريريّة، غير أنّهم يبقون أوفياء له. وهكذا يكتب الكندي ايان هاكينغ في 1995: كان فرويد يبدي تحمّساً شغوفاً للحقيقة، الحقيقة الكامنة، بوصفها قيمة. وهذا الالتزام الابدولوجي هو متوافق تماماً مع فعل كذبه الكثير".

في صفحات لوموند أو ليبراسيون انطلقت رودينسكو من منبرها للدفاع عن التحليل النفسي، الذي يعطى بالكثير من الدعم في فرنسا

في بداية سنوات 2000، كان 5000 أمريكي فقط من أصل 300 مليون تقريباً يتابعون علاجاً تحليلياً نفسياً

تم تطوير الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية من أيّ نزعة تحليليّة نفسيّة في 1980، في إصداره الثالّث.

ينشر الطبيب النفساني جاك بينيستو ألكاذيبه فرويدية في رودينسكو "بمعاذاة السامية المفقّعة" وتري أنّ الطّب النفسي الفرنسي صار طباً منكبواً منذ أن تقيّد بمعايير الدليل التشخيصي

جاء بعد سنتين تقرير المعهد الوطني للصحة والبحث الطبي حول فعالية العلاجات النفسية الذي كان قاسياً جداً إزاء التحليل النفسي

الكتاب الأسود للتحليل النفسي، الذي ظهر في 1 سبتمبر - أيلول 2005، لاقى نجاحاً كبيراً. فخلال أسبوعين فقط،

حتى في حياته، كان فرويد يتلقى انتقادات حادة: محاولات للنيل من سمعته، اتهامات بالممارسة شبه العلمية... وكان زملاؤه كبيرين جاني أو أوجين بولوير يرونه توجيهيا أكثر، بل وحتى مرهبا. ومنذ 1896، يدافع فرويد عن نفسه مؤكدا: "العداء الذي يكتونه لي وعزلي قد يدعو الى الافتراض أنني اكتشفت كبرى الحقائق." وهو أسلوب دفاعي غالبا ما يعيد تكراره مناصروه. مقاومة التحليل النفسي، قد تكون مقاومة لللاوعي، كبت للغريزة الجنسية. وفي مؤلف حروب فرويد، يصل الأمر بليزي ليؤكد أنّ انتقاد فرويد، هو رفعه إلى مصافّ الأسطورة والإسهام في زيادة شعبيته. وهي حجج مغالطة لأنه لا يمكن دحضها، ووفقا لميشيل أونفري، الذي نشر في 2010 أفول صنم - آخر كتيب منشور لحد الآن ضدّ مؤسس التحليل النفسي. بالنسبة لخصوم فرويد، لا يعمل اللف الحجاجي لمعارضتهم سوى على البرهنة على طائفتهم. إنّها "خديعة القرن"، كما سبق أن أطلقها سابقا الكاتب ألدوس هوكسلي.

إن كان التحليل النفسي قليل الفعالية جدًا، إن كان فرويد قد كذب حول نجاحات علاجه النفسي، لماذا يحظى التحليل النفسي بهذا العدد الكبير من الأتباع؟ في الواقع، وعقب صعود مهمّ في سنوات 1950، لم يكف التحليل النفسي عن الانخفاض. وتبقى فرنسا والأرجنتين آخر القلاع، والتي مارس فيها تأثيره على المستوى الثقافي، والطبي، والتربوي، والفني... غير أنّه بدأ يفقد الاهتمام رويدا رويدا هناك أيضا. المعالجون النفسيون يستخدمون مقاربات متنوعة مثل العلاجات النظامية، أو المعرفية-السلوكية، أو الإدماجية. وفي بعض المجالات، مثل الاضطرابات الوسواسية القهرية أو إدمان الخدرات، يعترف العديد من المحللين النفسيين بعدم فاعليتهم ويعهدون إلى زملائهم بمرضاهم قصد التكفل بهم. لأنه إن كان بإمكان التحليل النفسي تحسين معرفة ذاته، فهو يعمل على المدى الطويل وليس متكيّفا دائما عندما تكون الأعراض مكتسحة. فماذا بقي من الحجج لصالح فرويد والتحليل النفسي؟ بعض المحللين النفسيين مثل بيتر فوناجي توقفوا بالطبع عن تقديم حجج إلى الفريق المقابل: "ليس هناك أيّ دراسة تسمح باستنتاج لا لبس فيه أنّ التحليل النفسي فعال مقارنة بالعلاج البديل. (...). تجربتنا الخاصة للتحليل هي على الأرجح كافية في أغلب الحالات لكي نقنعنا بفعاليتها (6)".

أسطورة Anna O

التذكّر علاج. وهناك مبدأ أولي للتحليل النفسي. فوفقا لسيغموند فرويد، هكذا تمّ شفاء Anna O صنف من "المریضة رقم 0". كانت تعاني من الهستيريا، واسمها الحقيقي بيرثا بابينهايم، وكان مريضة الدكتور النمساوي جوزيف بريور. وأدى شفاؤها إلى العلاج الشهير -العلاج بالكلام، نموذج لفرويد وللتحليل النفسي. ويحكي بريور أنّه خلال حصة للتويم المغناطيسي، ذكرت Anna O. نكرى غير سارة من طفولتها. وبعد أن عبّرت عن غضبها، اختفى «الاضطراب للأبد»، يكتب بريور في دراسات عن الهستيريا، بالاشتراك مع فرويد. ولقب هذا الأخير في مدخل إلى التحليل النفسي: "تختفي الأعراض عندما تصير الشروط اللاواعية واعية". المشكلة: لم يتمّ علاج Anna O. فقد تمّ وضعها في مصحّة طبية بعد تلقيها العلاج، حيث عبّرت عن أعراض هستيرية جديدة في غضون شهر واحد. مثلت بابينهايم في الأخير للشفاء، تقريبا بعد عشر سنوات، عقب إقامات عديدة في المصحّة - ولا أحد بعد ذلك لدى بريور. عقب هذا الشفاء، ذكر فرويد في العديد من المرات "حالة مدرسية"، مستغلا كون المريضة كان قد

كون المرضى مجهولين يجعل من الصعب التأكد من كلّ الحالات التي ذكرها فرويد. وعلى الرغم من كلّ هذا، استطاع المؤرخون إيجاد البعض منهم، مثل "رجل الذئبان"

المحللون النفسيون، واعون بكون فرغهم العلمي هو تقريبا غير ممكن التقييم

يكتب الكندي ايان هاكينغ في 1995: كان "فرويد يبدي تحمسا شغوقا للحقيقة، الحقيقة الكامنة، بوصفها قيمة. وهذا الالتزام الأيديولوجي هو متوافق تماما مع فعل كذبه الكثير

حتى في حياته، كان فرويد يتلقى انتقادات حادة: محاولات للنيل من سمعته، اتهامات بالممارسة شبه العلمية

يدافع فرويد عن نفسه مؤكدا: "العداء الذي يكتونه لي وعزلي قد يدعو الى الافتراض أنني اكتشفت كبرى الحقائق"

وفقا لميشيل أونفري، الذي نشر في 2010 أفول صنم - آخر كتيب منشور لحد الآن ضدّ مؤسس التحليل النفسي. بالنسبة لخصوم فرويد، لا يعمل اللف الحجاجي لمعارضتهم سوى

على البرهنة على طائفيتهم.
إنها "خديجة القرن"،

تبقى فرنسا والأرجنتين آخر
القلع. والتي مارس فيها
(التحليل النفسي) تأثيره على
المستوى الثقافي، والطبي،
والتربوي، والفني... غير أنه
بدأ يفقد الاهتمام رويدا رويدا
هناك أيضا

يعترف العديد من المحللين
النفسيين بعدم فاعليتهم
ويعدون إلى زملائهم بمرضاهم
قد التكل بهم

ليس هناك أي دراسة تسمع
باستنتاج لا لبس فيه أن التحليل
النفسي فعال مقارنة بالعلاج
البدلي. (...)

تم شفاؤها بالفعل... ولكن ليس بالتأكيد بسبب العلاج بالكلام. إنه ضد هذه الأسطورة، التي تم
ذكرها كثيرا، والتي أشير إليها طويلا كمرجع، يقاوم خصوم فرويد، على غرار رؤية ميكيل بورش-
جاكوبسين: يعرف الجميع يعرف جيدا أن شفاء Anna O. هو أسطورة، غير أن الجميع يتسرع
ليتناسى ذلك عندما يتعلق الأمر باستخلاص الاستنتاجات النظرية ". (7)

* مقال مترجم عن مجلة العلوم الإنسانية "sciences humaines" -
الملفات الكبرى- العدد 50 - مارس-أبريل-مايو 2018-عنوان العدد: علم
النفس موضع النقاشات
الموقع:

https://www.scienceshumaines.com/docteur-sigmund-et-mister-freud_fr_39397.html

مراجع

1. Samuel Léze. Freud Wars. Un siècle de scandales, Puf, 2017.
2. Stephen C. Dubin, « War of the words. Psychoanalysis and his discontents », in Displays of Power. Controversy in the American Museum from the Enola Gay to Snsation !, New York University Press, 1999.
3. Karin Obholzer, Entretiens avec l'homme aux loups. Une psychanalyse et ses suites, Gallimard, 1981.
4. Karl Popper, La Logique de la découverte scientifique, 1935, rééd. Payot, 2017.
5. www.spf.asso.fr/lettre-a-la-ministre-des-solidarites-et-de-la-sante
6. Peter Fonagy et al., « An open door review of outcome studies in psychoanalysis », 2002.
7. Mikkel Borch-Jacobsen, Souvenirs d'Anna O. Une mystification centenaire, Aubier, 1995.

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Documents/Doc-ChakibSigmund&MisterFreud.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيقا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

*** **

الكتاب السنوي 2019 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعتهما الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الكد... 15 عاما من العطاء "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الوبج: 2003/06/13)

(رابط الكتاب)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>